

إن الله تعالى قد أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، وثمة أمور عظيمة بعث بها النبي ﷺ، والتي كانت نبراسا منبرا ودليلا قويا على صدق وعظم ما بعث به، ومن هذه الأمور - عباد الله - مكارم الأخلاق، قال ﷺ: ((إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ))، فللأخلاق منزلة عظيمة في ديننا، ولقد عني الإسلام بها عناية جلية وفريدة، وما ذلك - عباد الله - إلا لأن الآداب والأخلاق لها صلة وثيقة وقوية بعقيدة الأمة ومبادئها، فكمال الأمة بكمال أخلاقها، وصالح الأمة بصالح آدابها وأخلاقها. <urn:schemas-microsoft-com:office:office"/>

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
وإن من هذه الأخلاق الكريمة الفاضلة والصفات العالية الحميدة صفة الحياة، هذا الخلق النبيل والسلوك القويم الذي ما اتصف به مسلمٌ ما إلا وحاز به الخير الكثير، وابتعد به عن الشر المستطير، ونال به الثواب الكبير.

واعلموا - عباد الله - أن هذه الصفة الكريمة عظيمة الشأن رفيعة القدر، بل ويكفي لعظمها وجلالها أن الله سبحانه وتعالى يتصف بها، فالحياة صفة من صفات الرحمن، قال ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَيٌّ سِتِيرٌ يُحِبُّ الْحَيَّاءَ وَالسَّتَرَ))، وقال ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صَفْرًا)).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "وأما حياة الرب تعالى من عبده فذاك نوع آخر، لا تدركه الأفهام، ولا تكتنفه العقول، فإنه حياة كرم وبر وجود وجلال، فإنه تبارك وتعالى حيي كريم، يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً، ويستحي أن يعذب ذا شية شابت في الإسلام". نعم الحياة صفة من صفاته تعالى، وصفاته تعالى كلها صفات كمال، منزهة عن أي ضعف ونقصان.

ولا يخفى علينا جميعا - أيها المسلمون - ما كان لنبينا ﷺ من هذه الصفة الجليلة، فقد وصفه أبو سعيد الخضري بقوله: لرسول الله ﷺ أشد حياة من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئا يكرهه عرفناه في وجهه. والعذراء هي البنت التي لم يسبق لها زواج، وخدرها موضعها الذي تُصان فيه عن الأعين. نعم، هكذا كان رسولنا وقودتنا ﷺ.

ويتجلى - عباد الله - عظم وأهمية صفة الحياة في ديننا بما أخبر به ﷺ أن الحياة شعبة من شعب الإيمان، فقال ﷺ: ((الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَامَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ شُعْبِ الْإِيمَانِ))، وقال أيضا ﷺ: ((الْحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ قَرْنَانِ جَمِيعًا، إِذَا رَفَعَ أَحَدُهُمَا رَفَعَ الْآخَرَ))، أي: كل واحد منهما مرتبط بالآخر، فإذا ذهب الواحد ذهب الآخر.

والحياة كما عرفه العلماء: هو خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير في حق من الحقوق، فالحياة خلق فاضل يدعوك إلى التحلي بالفضائل والبعد عن الرذائل، والحياة يدعوك أن تتخلل في نفسك، وتستحي من ربك، ثم تستحي من الناس.

وإن الاستحياء من الله هو أسمى وأعظم مرتبة للحياة، وقد أمر به النبي ﷺ أصحابه فقال: ((استحيوا من الله حق الحياة))، فقالوا: يا رسول الله، إنا نستحي من الله حق الحياة! قال ﷺ: ((ليس ذلك؛ الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، من فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياة)).

فحقيقة الاستحياء من الله أن تحفظ لسانك وسمعك وبصرك وبطنك وفركك عما حرم الله سبحانه وتعالى عليك، وإن الاستحياء من الله يشمل كذلك أن لا تعصيه في خلوتك وقد قال بعض السلف: "خف الله على قدر قدرته عليك، واستح منه على قدر قربك منه".

وصدق من قال:

وإذا خلوت بريئة في ظلمة والنفس داعية إلى الطغيان

فاستحي من نظير الإله وقُلْ لها إن الذي خلق الظلام يراني

وإن من الحياة - عباد الله - أن تستحي من الناس، فحياءك من الناس يمنحك من أن تقع أعينهم على ما يعيبونه عليك، وحياءك من الناس يقودك إلى رفع الأذى عنهم، قال ابن القيم رحمه الله: "فالحياة هو من أعظم الأخلاق وأكرمها، ذلك لأنه مصدر الفضائل، فالولد يبر بوالديه بسبب الحياة، وصاحب الدار يكرم ضيفه بسبب الحياة، والعبد يفي بالموعد بسبب الحياة أيضاً، لذلك عندما سئل المصطفى عليه الصلاة والسلام قال: ((إِنْ لِكُلِّ دِينٍ خَلْقٌ، وَخُلِقَ الْإِسْلَامُ الْحَيَاءَ))" مروى بإسناد حسن عن أنس.

والحياة - عباد الله - مأثور عن الأنبياء المتقدمين، وأن الناس توارثوه عنهم قرناً بعد قرن، ففي صحيح البخاري من حديث أبي مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((إِنْ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ))، وفي فهم قوله ﷺ: ((إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ)) معنيان، أحدهما: أنه أمر بمعنى التهديد والوعيد، أي: إذا لم يكن لك حياة فاعمل ما شئت فإله يجازيك عليه بما تستحق، وهو من باب قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: 04]، والمعنى الآخر: أنه بمعنى الخير، أي: أن الإنسان الذي لم يستح صنع ما شاء، فإن المانع من فعل القبائح هو الحياة، فمن لم يكن له حياة انهلك في كل فحشاء ومنكر، كما ذكر ذلك ابن رجب رحمه الله.

فالمرء حينما يفقد حياته يتدرج في المعاصي من سيئ إلى أسوأ، من رذيلة إلى أرذل، ولا يزال يهوي حتى ينحدر إلى الدرك الأسفل.

وكذلك المرء إذا لم يكن له حياة جهر بالمعاصي أمام الناس ولا يبالي، فالمجاهرون بالجرائم والمعاصي والمعلنون لها أمام الناس جهارا نهارا ولا يبالون بما يفعلون هؤلاء لا يستحيون من الله، ولا يستحيون من الناس، ولهذا استحقوا الوعيد الشديد الذي أخبر به النبي ﷺ بقوله: ((كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إِلَّا

المجاهرين))، ونفهم من هذا - عباد الله - أن الجهر بالمعصية أخطر من الإسرار بها، والجهر بالمعصية أعظم إثماً وأشد جرماً عند الله من الإسرار بها، فالذي يشرب الخمر أو يعصي الله بنوع من أنواع الفجور والفسوق على قارة الطريق أمام أعين الناس أعظم إثماً عند الله من الذي يعصي في كل هذا وهو سائر لنفسه، بينه وبين نفسه، سائر لمعصيته عن أعين الناس، بينه وبين ربه؛ لأن الجهر بالمعصية أمام الناس - عباد الله - فيه تحد لله عز وجل في محارمه أمام عباده، ولأن الجهر بالمعصية يقود إلى استحلالها، والجهر بالمعصية فيه دعاية ودعوة وإشهار للحرام، ويورث في قلوب الناس الرغبة في ارتكابه، فالناس مغطرون على حب التوافق والمشابهة بعضهم ببعض، خاصة عند قصار العقول وضعاف النفوس، فيزين لهم الشيطان ارتكاب الحرام، فيكثر الفساد ويشيع ويتشرب في أوساط المسلمين، وكما أن الجهر بالمعصية من موجبات غضب الله وسخطه وعذابه في الدنيا، ولهذه الأسباب كلها كان الجهر بالمعصية أعظم وأشد إثماً من الإسرار بها، فمن استحيى من الله ومن الناس وستر معصيته عن أعين الناس وستر نفسه معترفا بذنبه أدركته عافية الله وستره في الدنيا والآخرة، وأما من فضح نفسه وخلع ثوب حياته وأعلن وجاهر بذنبه أمام الناس كان وبال أمره خسراً، وعقابه عند الله شديداً، ولم يكن من المعافين، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلَّ مِنْ شَاءٍ وَيُهْدَى مِنْ شَاءٍ﴾ [فاطر: 8].

وقد أحسن من أشد بقوله:

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستح فاصنع ما تشاء

فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

يعيش المرء ما استحي بخير ويبقى العود ما بقي للحاء

وقال الآخر:

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير في وجه إذا قل ماؤه

حياؤه حافظه عليك فإنما يدل على وجه الكريم حياؤه

إن الحياة - عباد الله - كله خير، رأى النبي ﷺ رجلاً يعاتب أخاه في الحياة، فقال له ﷺ: ((دَعُ؛ فَإِنَّ الْحَيَاءَ لَا يَأْتِ إِلَّا بِخَيْرٍ)). والحياة المقصود في هذا الحديث هو الحياء الشرعي الذي يحمل صاحبه على ترك القبيح، ويمنعه من التقصير في حق من الحقوق، وليس الحياء المذموم، قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: "وأما كون الحياء خيراً كله ولا يأتي إلا بخير فقد يشكك على بعض الناس من حيث أن صاحب الحياء قد يستحي أن يواجه بالحق من أجله، فيترك أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وقد يحمله الحياء على الإخلال ببعض الحقوق وغير ذلك مما هو معروف في العادة".

فلا ينبغي أن يكون الحياء مانعاً من قول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا حائلاً عن طلب العلم، وقد قال ﷺ: ((إِثْنَانِ لَا يَعْلَمَانِ: مُسْتَحْيٍ وَمُسْتَكْبِرٍ))، وهذا من قبيل الحياء المذموم، فلا يمنعه الحياء - أخي المسلم - أن تسأل عما أوجب الله عليك، وأن تستفسر عما أشكل عليك

في أمور دينك ودنياك، فإن الله لا يستحي من الحق.

عباد الله، لقد خلق الله المرأة وكانت مثالا للحياء، فقد فطرها الله سبحانه وتعالى على هذه الصفة الجليلة، وجاء الإسلام فجعلها شعارا للعرض والحرمة، وعنوانا للحشمة والعفة، ورمزا للحياء والستر، فشرع لها من الشرائع والأحكام ما يحفظ به حياءها وعفتها، وما يصون به شرفها وقيمتها. ومن هذه الأحكام ما أوجبه الله عليها من السترة واللباس، هذا الحجاب هذا اللباس الرباني الذي هو عنوان الحياء والعفة عند المرأة المسلمة، فقد أوجبه الله تعالى في كتابه فقال جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجَكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِ ذَلِكَ أَذْنِي أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 95]، وثبت أن النبي ﷺ قال: ((يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض فلا يحل أن يرى منها إلا وجهها وكفيها)).

أيها الإخوة الكرام، إن هناك تلازما بين ما شرعه الله من اللباس لستر العورات وبين التقوى، فكلاهما لباس، قال تعالى: ﴿يَبْنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُوْرِي سَوْءَكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسِ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يَبْنِي آدَمَ لَا يَفْتَنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَهُمَا إِنَّهُ يَرََاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 62، 27].

فالتقوى يستر عورات القلب ويزينه، واللباس الشرعي يستر عورات الجسم ويزينه، وهما متلازمان، فمن الشعور بالتقوى والحياء ينبثق شعور يستقيح به المرء أن يتعري في جسده، ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمل أن يتعري أو أن يدعو غيره إلى العري، ولهذا كان ستر العورة عند الرجل والمرأة ملازما للتقوى والحياء.

والحجاب الذي يستر المرأة هو عنوان عفتها، فالحجاب يحفظها من أذى الفساق ومرضى القلوب، فلا تتسابق النظرات إليها، لأنها حفظت وأمر الله، وحفظها الله سبحانه وتعالى.

والحجاب - عباد الله - يتناسب مع غيرة الرجل التي جبله الله عليها، أباً كان أو زوجاً أو أخاً أو ابناً، فالمؤمن لا يرضى أن توجه نظرات خائنة إلى أهله وعياله، وحفظ كل ذلك بالحجاب.

كما أن الحجاب طهارة للمرأة المحجبة وطهارة لقلب الرجل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: 35]. فوصف الله سبحانه الحجاب بأنه طهارة لقلوب المؤمنين والمؤمنات: لأن العين إذا لم ترم يشته القلب، أما إذا رأت العين فقد يشتهي القلب وقد لا يشتهي. ومن هنا كان القلب مع عدم الرؤية أطهر، ومع عدم الفتنة أسلم.

فالمرأة المحجبة تجدها من أكثر النساء حياءً، في لباسها، في كلامها، في مشيتها، وقد ذكر الله على سبيل المدح في سورة القصص من موقف ابنتي الرجل الصالح اللتين تربتا على العفة والطهارة والحشمة والحجاب، قال تعالى: ﴿فَبَآئِهِ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص: 52].

وإن ما نراه اليوم - عباد الله - مما أحدثه بعض المسلمات في هذا الزمان من التعري وليس القصير والضيق والشفاف من اللباس بقصد أو بغير قصد مناف للحياء، وهو أمر فظيح، وهو بعيد كل البعد عما أوجبه الله على المسلمات لما أبدينه من المفاتن والمحاسن، فكان سببا عظيما في إثارة الفتنة عند الشباب، وقد حذر الله سبحانه وتعالى من التبرج في كتابه فقال للمسلمات: ﴿وَلَا تَبْرَجْنَ تَبَرُّجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: 33]. ولقد ثبت عن النبي ﷺ في السنة الصحيحة أنه قال: ((صنفان من أهل النار لم أرهما بعد: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا)).

هذه صفات نساء من أمته رآهن النبي ﷺ في النار، ولم يرهن في زمانه، وهذا من معجزاته ﷺ، فقال في وصفهن: ((كاسيات عاريات)) أي: عليهن كسوة لا تفيد ولا تستر، إما لقصرها أو خفتها أو ضيقها، ((مائلات مميلات)) مائلات عن الحق وعن الصراط المستقيم، مميلات لغيرهن، وذلك بسبب ما يفعلن من الملابس والهيئات الفاتنة التي ضلت بها في نفسها وأضلت غيرها، ثم فقال ﷺ: ((لا يدخلن الجنة)) أي: لا يدخلن الجنة مع الداخلين الأولين من المسلمين، يمرون بجهنم أولاً والعباد بالله.

فاتقوا الله - عباد الله - في بناتكم ونسائكم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظُ شِدَادٍ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: 6].

وقد يرفض بعض النساء الحجاب بدعوى أنه لباس قديم، ونحن في عصر حضارة وتقدم، فجوابها أن أحكام الله في القرآن صالحة لكل مكان وزمان، ولكل حضارة وانحطاط، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9].

وكذلك بعض الآباء والأمهات قد يتساهلون في قضية الحجاب بحجة أن البنت ما زالت صغيرة السن، أو لم تنه الدراسة بعد، قال ﷺ مبينا السن الذي تكلف به البنت بالحجاب: ((يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض فلا يحل أن يرى منها إلا وجهها وكفيها)).

ومن النساء والفتيات من يمتنعن من ارتداء الحجاب خوفا من عدم الزواج، فبزعمن أن الفتاة إذا ارتدت الحجاب فإنها ستكون مخبأة عن أنظار الرجال، ولن تعجب أحدا وهي مستورة، وسيفوتها الزواج، وأما إذا كانت متبرجة ومتزينة فستجلب الكثير من الرجال، وأكد أنها ستقع على من يتزوجها، وهذه نظرة قاصرة ناتجة عن ضعف في الإيمان، فالمسلمة المؤمنة الصادقة يهملها ابتداء طاعة الله ومراضاته واجتناب غضبه وسخطه لا الزواج، والزواج هو نصيب مكتوب بيد الله، والحقيقة والواقع الذي نراه في شوارعنا يكذب هذا، فإن المرأة المتبرجة لا تجلب أنظار الرجال فحسب، بل أنظار الذئاب كذلك الذين همهم الوحيد هو العبث والسخرية ببنات الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

عباد الله، إن الحياء خلق عظيم يحفظ للرجل هيئته ورجولته، ويحفظ للمرأة عزنها وأنوثتها، ويلبس الشاب الجمال والكرامة. رزقنا الله وإياكم الحياء، وجعله لنا رادعا عن كل محظور، وما نعا من كل منكر.

اللهم أصلحنا وأصلح شبابنا وبناتنا ونساءنا أجمعين

كاتب المقالة :

تاريخ النشر : 07/09/2012

من موقع : قناة نور الحكمة الإلكترونية - صوت علماء الأزهر الشريف بفاقوس

رابط الموقع : WWW.norelhekma.com